

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

خطبة عيد الأضحى ١٤٣٤

قال الله عز وجل: { وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } .

وقال سبحانه: { وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } .

وقال تعالى: { مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } .

وقال جل وعلا: { وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ } .

وقال سبحانه: { إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ } .

وفي مسند أحمد وسنن الترمذي وصحيح ابن خزيمة وصحيح ابن حبان ومستدرک الحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وصححه الألباني في " صحيح الترغيب والترهيب " كلهم من حديث الحارث الأشعريّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: " وَأَنَا أَمْرُكُمْ بِخَمْسٍ أَمَرَنِي اللَّهُ بِهِنَّ : الْجَمَاعَةُ ، وَالسَّمْعُ ، وَالطَّاعَةُ ، وَالْهَجْرَةُ ، وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَمَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رَبْقَةَ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ مِنْ رَأْسِهِ ، إِلَّا أَنْ يُرَاجَعَ ، وَمَنْ ادَّعَى دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ فَهُوَ مِنْ جُثَى جَهَنَّمَ ، قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى ؟ قَالَ : وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى ، تَدَاعَوْا بِدَعْوَى اللَّهِ الَّذِي سَمَّاكُمْ بِهَا الْمُؤْمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ عِبَادَ اللَّهِ " .

إن هذه الحزبيات المقيمة شتت الأمة، وفرقت شملها، وأضعفت صفها، ونشرت بينها الأحقاد والضغائن، فارتفعت الشعارات الشيطانية، وتعددت الرايات

العنصرية، وكثرت التعددات الحزبية، التي فرقت المجتمع وأفسدت الأمة وخلخت الصفوف.

إن الحزبية المقيتة لم تدخل مجتمعا إلا فرّقتة، ولا صالحا إلا أفسدته، ولا كثيرا إلا قللته، ولا قويا إلا أضعفته؛ لأنّ كلّ طائفة معينة أو حزب معين جعل الولاء والبراء والحبّ والبغض لأصحابه وأعضاء حزبه دون غيرهم.

لا شك فيه أن منهج أهل السنة والجماعة هو المنهج الحق، وهو سبيل المؤمنين الذي يجب على كل أحد سلوكه، والتمسك به، والدعوة إليه، والدفاع عنه. وهو الطريق الذي من حاد عنه خسر وضل وهلك وتخبط في الأهواء المضلة والآراء المبتدعة. قال الله تعالى: { وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُؤَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا }.

فهذا المنهج منهجٌ معصومٌ من الضلال والخطأ؛ لأنه متلقى من الكتاب والسنة، ولكن الخطأ والزلل قد يحصل ممن يسلك هذا السبيل أو ممن ينتسب إليه. وهناك أسبابٌ لهذه الحزبيات، ومنها:

١- **الجهل**: وهو أسوأها وأقبحها. لقد غدا بعض الطلاب مع شيخهم كالريشة في مهب الريح، تميل معها حيث مالت، لذلك فهو يتوجه أينما يوجهه شيخه. غير مبالٍ وافق شيخه الحق أم خالفه.

٢- ومنها: اتباع الهوى، فمن المتعصبين من يكون عنده شيء من العلم، ولكنه متبع لهواه. أخرج أبو نعيم في "الحلية" والبيهقي في "شعب الإيمان" وحسنه الألباني في "صحيح الجامع" عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أَخَوْفُ مَا أَخَافَ عَلَى أُمَّتِي ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ: شُحُّ مَطَاعٍ وَهَوَى مُتَّبَعٌ وَإِعْجَابُ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ".

٣- ومنها: الحصول على مطمع دنيوي يربطه بشيخه، بحيث أنه إذا تجرأ على مخالفة شيخه فيما هو عليه، فقد هذا الأمر الدنيوي. أخرج الأمام أحمد في مسنده والترمذي في سننه والطبراني في الأوسط وصححه الألباني في " صحيح الجامع " عَنْ كَعْبِ بْنِ عِيَّاضٍ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةً وَفِتْنَةُ أُمَّتِي الْمَالُ".

٤- ومنها السعي إلى الظَّفر بمنزلة عند شيخه الذي يتعصب له، فيسارع هذا المسكينُ بالمناصرة لمن يتعصب له بالباطل وإظهارِ الدفاع عنه والثناءِ عليه والمدح والإطراء أمامه بل ربما يتقرَّب إلى شيخه بدم الناس بالباطل ومجاوزة الحد والدجاج في الخصومة، كل هذا سعيًا إلى الظَّفر بكلمة ثناءٍ أو مدحٍ من شيخه حتى ترتفع منزلته ويشتهر صيته بين المتعصبة من أمثاله.

٥- ومنها مقابلةُ التعصبِ بتعصبٍ مثله، وذلك أن بعض الشباب يكون محبًّا لشيخ ما، حبًّا لا يصل إلى التعصب والتكتل لهذا الشيخ. فإذا رُدَّ على هذا الشيخ أو تُكلم فيه ولو بحقٍّ بالغ وجاوز في الدفاع عنه، إما بتكليفٍ أو تأويلٍ غيرٍ سائغٍ

لكلامه أو بإنكار ما هو ثابت عنه. فيجعل عينيه مريضتين عن رؤية الخطأ من شيخه، كما قال القائل:

وَعَيْنُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ وَلَكِنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِي الْمَسَاوِيَا

ولذلك كان من أسباب البدع مقابلة البدعة بالبدعة. فبدعة الخوارج قابلتها بدعة المرجئة، وبدعة القدرية قابلتها بدعة الجبرية وبدعة الروافض قابلتها بدعة النواصب وهكذا. فمقابلة التعصب بتعصب مثله خطأ يؤلّد بدعة جديدة. وهو كالاستجارة من الرمضاء بالنار. ولا يفهم من هذا عدم الدفاع عمّن ظلم من المشايخ وطلاب العلم، بل إنّ ذلك أمرٌ مطلوبٌ، فقد أخرج البخاري في صحيحه والترمذي في سننه وأحمد في المسند كلّهم من حديث أنسٍ رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا فَقَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ انْصُرْهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ انْصُرْهُ؟ قَالَ: تَحْجُزْهُ أَوْ تَمْنَعْهُ مِنَ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ". فالدفاع عن المظلومين أمرٌ مطلوبٌ شرعًا على من قدير عليه مادام أن ذلك في حدود المشروع ولم يصل إلى حد التعصب. ولكن

يُحذَرُ مِنْ مجاوزة ما حده الشرع، وَلِيَجْعَلَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ مِيزَانَهُ الَّذِي يَزِنُ بِهِ
النَّاسَ ظَالِمَهُمْ وَمَظْلُومَهُمْ. وَلِيُوطِّنَ نَفْسَهُ عَلَى الاعْتِرَافِ بِخَطَا شَيْخِهِ؛ لِأَنَّهُ مِنْ
بَنِي آدَمَ، وَكُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ يَرَى شَيْخَهُ مُلَكًّا مُعْصُومًا فَهَذَا شَيْءٌ
آخَرٌ يَحْتَاجُ صَاحِبُهُ أَنْ يُعَالَجَ فِي مَكَانٍ آخَرَ .

٦- ومنها الخوفُ الشَّدِيدُ مِنْ أَنْ يُتَكَلَّمَ فِيهِ وَيُسْقَطَ وَتَسْقُطَ مَنْزِلَتُهُ بَيْنَ النَّاسِ،
فِيلْجُ مَعَ مَنْ وَلِجُ فِي الْخُصُومَةِ وَيَتَعْصَبُ مَعَ مَنْ تَعْصَبُ لَشَيْخِهِ حِفَازًا عَلَى هَذِهِ
الْمَنْزِلَةِ وَعَلَى هَذَا الْجَاهِ الَّذِي هُوَ فِيهِ، وَرَبَّمَا اسْتَنْفَرَهُ شَيْخُ الضَّلَالَةِ عَلَى ذَلِكَ؛ خَشْيَةً
انْصِرَافِ الطَّلَابِ مِنْ حَوْلِهِ. كَمَا قَالَ ابْنُ قَتِيبَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي "مُخْتَلَفِ الْحَدِيثِ":

سَيُؤَافِقُ قَوْلِي هَذَا مِنَ النَّاسِ ثَلَاثَةٌ:

رَجُلًا مُنْقَادًا سَمِعَ قَوْمًا يَقُولُونَ فَقَالَ كَمَا قَالُوا فَهُوَ لَا يَرَعُوي وَلَا يَرْجِعُ لِأَنَّهُ لَمْ
يَعْتَقِدِ الْأَمْرَ بِنَظَرٍ فَيَرْجِعُ عَنْهُ بِنَظَرٍ.

ورجلاً تطمح به عزّة الرياسة وطاعة الإخوان وحبُّ الشهرة فليس يردُّ عزّته ولا يُثني عنانه إلا الذي خلقه إن شاء؛ لأن في رجوعه إقراره بالغلط واعترافه بالجهل وتأبى عليه الأنفة، وفي ذلك أيضاً تشتُّ جمعٍ وانقطاع نظام واختلاف إخوان عقدتهم له النحلة. والنفوس لا تطيب بذلك إلا من عصمه الله ونجّاه.

ورجلاً مسترشداً يريد الله بعمله لا تأخذه فيه لومة لائم ولا تدخله من مفارق وحشة ولا تلفته عن الحق أنفة. فإلى هذا بالقول قصدنا وإياه أردنا. اهـ

٧- ومنها الانتساب إلى قبيلة أو منطقة أو بلد الشيخ المتعصب له، فبعض الشباب ممن لا فقه له أو ممن يتبع هواه يتعصب لبلديّه أو لمن ينتسب لقبيلته من المشايخ بغضّ النظر عن إصابة هذا الشيخ أو خطئه. ومن فعل هذا فقد شابه أهل الجاهلية الأولى في اتباعهم آباءهم وتعصبهم لطريقتهم الباطلة وإعراضهم عن الحق كما قال الله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ}.

إذا كان هذا شيءٌ من أسباب التعصب للأشخاص، فهناك شيئاً من آثاره:

١ - الغلو في الشيخ المتعصب له، ومجاوزت الحد في مدحه نظماً ونثراً سرّاً وجهراً وفي حضرته وغيبته. والنبى ﷺ قد حذرنا من الغلو والإطراء وبين ﷺ أنه أهلك من كان قبلنا.

٢ - السعي في إسقاط كل من يخالف الشيخ المتعصب له، فكل من وقف ضد شيخهم سعوا في إسقاطه وتشويه صورته بين الناس كائناً من كان. وقد يكون هذا المخالف لهم من أهل الفضل والعلم ومن قد رسخت قدمه في السنة. فترى القطعان من المتعصبة لا يراعون حرمة له، ولا يرقبون فيه إلا ولا ذمة. وهذا من الخلل العظيم في الولاء والبراء إذ أنهم يجعلون الشيخ هو الميزان الذي يزنون الناس به. فمن وافق شيخهم مدحوه ورفعوه فوق منزلته، ومن خالف شيخهم ذمموه وبالغوا في ذمه والافتراء عليه ولو كان من أفاضل الناس ومن أحسن الناس استقامة وسلوكاً ومنهجاً. وهذا من صفات أهل البدع والتحزب.

٣- عدم قبول الحق إذا كان يخالف الشيخ المتعصب له. فيسارع هؤلاء الأتباع بل المريدين بالدفاع بالباطل عن شيخهم بشتى الطرق والأساليب، وإن كان خطأ شيخهم واضح وضوح الشمس، ولكن كما قال الإمام أحمد رحمه الله:

ولربما جهل الفتى طُرُق الهدى والشمس طالعة لها أنوار

بيد أنهم لا يريدون قبول هذا الحق من غيره!

فليت شعري كيف تتحول قعطان المتعصبة وراء كلام الشيخ وكأنه قرآن منزل!

٤- التأويل المتكلف لأخطاء الشيخ المتعصب له. وصوره أكثر من أن تحصى. فما

من زلة أو خطأ يقع فيها شيخهم إلا ويجدون له مخرجاً منها. فترى الفئام من

المتعصبة يبحثون في بطون الكتب وأقوال العلماء علّهم يجدون مخرجاً لشيخهم أو

وجهًا لكلامه الباطل. فليس عندهم استعدادٌ للاعتراف بخطأ شيخهم.

٥- جَعَلَ الشَّيْخُ هُوَ الدَّعْوَةُ والدَّعْوَةُ هِيَ الشَّيْخُ، فَمَنْ تَكَلَّمَ فِي الشَّيْخِ بِحَقٍّ أَوْ بِبَاطِلٍ فَهُوَ مُتَكَلِّمٌ فِي الدَّعْوَةِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْبَاطِلِ وَالْبِدْعِ الْمَنَافِئِ لِلدَّعْوَةِ وَالْمُحَارِبِينَ لَهَا.

٦- مَدَحُ الشَّيْخِ لِاتِّبَاعِهِ الْمُتَعَصِّبَةِ وَتَقْدِيمُهُمْ عَلَى مَنْ هُوَ أَوْلَى مِنْهُمْ عِلْمًا وَعَمَلًا.

٧- وَمِنْ آثَارِ التَّعَصُّبِ لِلْأَشْخَاصِ كَثْرَةُ الْمَشَاكِلِ وَالْخُصُومَاتِ فِي طَرِيقِ الدَّعْوَةِ. فَهَذَا التَّعَصُّبُ يُولِّدُ الْمَشَاكِلَ الَّتِي تَقِفُ حَجَرَ عَثْرَةٍ أَمَامَ الدَّعْوَةِ.

٨- وَمِنْ هَذِهِ الْآثَارِ شَهَادَةُ أَهْلِ الْبَاطِلِ بِأَهْلِ السُّنَّةِ، وَتَنْفِيرُ النَّاسِ عَنْ دَعْوَتِهِمْ بِسَبَبِ هَذِهِ الْخِلَافَاتِ الْمُتَوَلِّدَةِ عَنِ التَّعَصُّبِ.

فَكَمْ مِنَ الْكَلَامِ الْبِذِيِّ قَدْ اسْتُغِلَّ فِي التَّنْفِيرِ عَنْ دَعْوَةِ الْحَقِّ وَكَمْ مِنَ التَّصَرُّفَاتِ الْحَمَقَاءِ قَدْ اسْتُغِلَّتْ لَصَرْفِ النَّاسِ عَنِ الْحَقِّ. أَلَا فَلْيَتَّقِ اللَّهُ أَنْاسٌ فِي أَعْمَالِهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ وَلْيُزَنُوا بِمِيزَانِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَقَبْلَ أَنْ تَخْطُهَا بَنَانُهُمْ.

